٥٠ أبو القاسم القبارى
رجل صالح خافه السلاطين

فى الحديث عن الشيخ الصوفى أبى القاسم محمد بن منصور بن يحيى القبارى السكندرى (نسبة إلى مولده ووفاته بالإسكندرية) ينبغى الإشارة إلى خطر انتشار التصوف فى القرن السابع الذى عاش فيه هذا الصوفى حيث ولد عام ٥٨٧ هـ، ولكى نعرف انتشار هذا الخطر لابد من التعرف على الحالة السياسية والعلمية فى هذا القرن.

فالحالة السياسية يمكن إجمالها فى هذا القرن بأنها كانت ضعيفة إلى حد كبير بسبب اشتغال الدول الإسلامية بحروبها الداخلية، الأمر الذى جعلها غافلة عن الأخطار الخارجية التى تهددها من الشرق والغرب على حد سواء، فتسقط بهذه الحروب الداخلية دولة، وتقوم دولة، بعد أن يفنى فيها عدد من الدولتين، ويتبع هذا ما يتبعه من ضعف عام للدولة الإسلامية من الناحية السياسية.

وكذلك كانت حالة المسلمين العلمية. فقد اكتفوا بما وصلوا إليه فى علومهم، ولم يهتموا إلا باختصار الكتب المبسوطة التى وضعها أسلافهم الأقدمون. وكان هذا لا يحصل إلا نادراً فيما قبل هذا القرن. وممن عُنىَ بهذا ابن الحاجب، الذى كانت له مختصرات فى أصول الفقه والنحو وغيرهما. وقد قصد هو وغيره بهذا أن يسهلوا على طلاب العلوم الإحاطة بها، فلم يكن همهم فيها إلا سرعة الاستحضار، وكان هذا تمهيداً لما سَيَؤُول إليه أمرهم فى العناية بشرح هذه المختصرات، وفقدان ملكة الابتكار فى العلوم، وتأخرهم فيها عن غيرهم. مع أنه كان من المفترض أن يكونوا متقدمين.

يضاعف من انحدار الحالة العلمية بوجه عام فى هذا القرن زيادة العداء للفلسفة، حتى أنه كان لا يشتغل بها فى هذا القرن إلا نفر منهم فى حذر وخفية، لما كان من قوة نفوذ رجال الدين، خاصة المتصوفة الذين حرم البعض منهم قراءة المنطق والفلسفة. ومن عجيب الأمور أن الملوك كانوا يطيعونهم فى ذلك. وربما يكون ذلك لسببين: أولهما ظاهرى، وهو العمل على إرضاء رجال الدين. وثانيهما، خفى، وهو الخوف من إعمال العقل الذى يحتمه الاشتغال بالفلسفة والمنطق والذى نتيجته لن تكون فى صالح هؤلاء الملوك.

وطبيعى أن يزيد ضعف الحالة العلمية من نفوذ المتصوفة حتى يزيد خضوع العلماء لهم. وكان لظهور أقطاب التصوف ـ ومنهم السيد أحمد البدوى، والسيد إبراهيم الدسوقى وغيرهما ـ أثر كبير على زيادة نفوذ المتصوفة وما يدعون إليه.

ونتيجة لذلك أن علا شأن أقطاب التصوف على شأن الملوك والعلماء حتى أذعن المسلمون لدولة التصوف الباطنية، أكثر مما أذعنوا لدولهم الظاهرة، لأن دولة الباطنية فى نظرهم هى التى تصرف أمور الكون فى الحقيقة، وليس لملوك الدنيا إلا تصرف ظاهر فى دولهم. وقد بلغ من هوان أولئك الملوك بإزاء رجال الدولة الباطنية ممن لم يصلوا إلى درجة الأقطاب المعترف بهم وبعلمهم أن يخاطبوهم بما لا يليق. مما ذكره المقريزى فى خططه دليلا على أن هؤلاء المتصوفة الصغار كان يستخفون عمداً برجالات الدولة من ملوك وأمراء وعمال.

فى هذا القرن ولد أبو القاسم القبارى بالإسكندرية ونشأ وترعرع ومات ودفن بظاهرها. وكان كغيره من المتصوفة مرهوب الجانب، حتى وإن كان ليس على شاكلة هؤلاء الذين يستغلون التصوف لمصالحهم الخاصة. حيث كان يختلف عنهم فى أنه من الزاهدين فى كل شئ، فلم يكن له بالإسكندرية ولد ولا صاحب، إذا لم يتزوج طيلة حياته، ولم ينغمس فى نعيم الحياة ومباهجها، وإنما كان عاكفاً عازفاً عن كل ذلك. وكما يقول أحد مؤرخيه القدامى، واسمه محمد زيتون: «لم تعرف من أسرته غير والده منصور، وجده يحيى، وأخاه الذى مات بالإسكندرية فورثه الشيخ القبارى».

ويذكر الشيخ الحافظ صدر الدين السلفى الأصفهانى فى معجمه أن معنى كلمة القبارى هو نسبة إلى ثمرة القبار التى كان الشيخ يفضل أكلها فيقول: «لقد بقى القبارى ثلاث وستين عاماً لم يأكل من اللحوم إلا ما يصطاده من البر أو البحر، ولم يشرب لبناً أو يأكل جبناً.. زهداً وتورّعًا واكتفى بأكل القبَّار المباح».

ويصف ابن العماد الشيخ القبارى فى كتابه «شذرات الذهب فى أخبار مَنْ ذَهَب» بالورع والتقوى، فيقول عنه: «كان صالحاً قانتاً منقطع النظير فى الورع..».

وفى هٰذا المعنى يقول أيضاً المناوى فى كتابه «الكواكب الدرية» عن الشيخ القبارى: «إنه كان زاهداً، أخلص فى العمل، واجتهد فى قطع الأمل، ومال إلى العُزْلَة، واستعد للرحلة.. كان كثير الخشوع والخضوع مشهورَ الذكر بين الصوفية. يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر..».

وإذا كانت هذه بعض جوانب حياة هذا الشيخ الصوفى فإن سلوكه مع ملوك وحكام زمانه كان من الأمور التى تشد الانتباه، حيث تحدثنا فى ذلك المصادر التاريخية ـ وفى مقدمتها ما كتبه مؤرخه محمد زيتون، أو ما رواه ابن المنير ـ من أن الملك نجم الدين أيوب كان يسعى دائماً لرضا هذا الشيخ الصوفى، وأن الظاهر بيبرس كان يحرص على زيارته والاستماع إلى وجهات نظره فى تسيير أمور دولته، وأن السلطان قايتباى قام بتكريمه بعد وفاته تقديراً لعلمه وفضله.

ولعل انتساب حى بأكمله فى الإسكندرية (وهو حى القبارى) إليه لخير دليل على مكانة هذا الشيخ الجليل. وفى هذا الحى مسجد كبير يحمل اسمه، ويتوسطه ضريح يضم رفاته. ويحرص المؤرخون على الإشارة إليه تأكيداً على تخليد ذكرى هذا الرجل الصالح.

***